"التاريخ والهوية في النص الزجلي المغربي"

قراءة في كتاب فن الزجل – القصيدة – لعباس الجيراري

الطالب حمزة لحلو

باحث في سلك الدكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

المملكة المغربية

الملخص

يتناول المقال قراءة تركيبية في كتاب "فن الزجل – القصيدة" لعباس الجيراري، بوصفه عملا تأسيسيا في دراسة الزجل المغربي كلون أدبي يحمل الذاكرة والهوية. يوضح أن الجيراري يرى في الأدب الشعبي، وخاصة القصيدة الزجلية، صورة صادقة للشخصية الوطنية أكثر من الأدب "المدرسي"، لأنه نابع من اللغة اليومية ومن معيش الناس وتاريخهم. يكشف المقال منهج الجيراري في جمع المادة الزجلية من كتب التاريخ والرحلات والفقه والوثائق المتناثرة، ثم تصنيفها فنيا وموضوعيا. يناقش عمله مفاهيم أساسية: تعريف الزجل وأنواعه، لغته وعلاقته بالفصحى والعامية، البنية العروضية والإيقاعية، والموضوعات الكبرى مثل المرأة، الحياة، الدين، والمديح النبوي، إضافة إلى تتبع نشأة القصيدة الزجلية وتطورها وازدهارها وأعلامها. في النهاية، يبرز المقال أن الزجل ليس كلاما عاميا عابرا، بل شكل شعري منظم له بحوره وأسلوبه وصوره وحجته، يمارس وظيفة ثقافية وتاريخية: توثيق الوجدان الجماعي، وتثبيت الهوية المغربية، وتأكيد استمرارها داخل سياق اجتماعي وسياسي متحول.

الكلمات المفتاحية: الزجل المغربي، القصيدة الشعبية، عباس الجيراري، الهوية الثقافية، العامية المغربية، العروض الزجلي، الذاكرة الجماعية.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

مقدمة:

يعد كتاب" فن القصيدة" للباحث الأكاديمي عباس الجيراري عملا متميزا في موضوعه من ناحية، ومن ناحية أخرى هو باكورة تآليفه، باعتباره أطروحة أكاديمية لنيل الدكتوراه. وهو كما بين للقارئ في مقدمة الكتاب، أن رغبته كانت متجددة ومهيأة للخوض في غمار جمع وتمحيص مادة الأدب المغربي المعبر عن الثقافة الوطنية. إنه أدب معبر عن أصوله، ويعتبره الباحث بنية إبداعية، يرتبط في أشكاله ومضامينه ببقية بنيات المجتمع الذي ينبغ فيه مبدعوه. وإنه لا مناص له من أن يتأثر بمختلف العناصر الجدلية التي توجه حركة تاريخ هذا المجتمع وتتحكم في تشكيل نمطه وتكوين شخصية أفراده(1).

بهذا الصدد يذكر أربعة دوافع أساسية حفزته على الإقبال نحو هذا البحث الأكاديمي.

1. دوافع التأليف الكتاب:

وتتحدد في:

أولا : أن الأدب الشعبي صورة للشخصية الوطنية، مهما كانت باهتة فهي أوضح من الصورة التي يعكسها الأدب المدرسي المثقف

ثانيا : أن دراسته بمثابة تعزيز لإقليمية الأدب وتقرير لمذهبه الذي يؤيد الداعين له منهاجا للكشف عن أدب الأقاليم العربية المختلفة وسبيل الأمة العربية إلى أنّ شتات أدبها المبعثر المجهول .

ثالثا : أن الأدب الشعبي مكمل للأدب المدرسي وأن من شأن دراسته أن تساعد على الربط بين الأدبين واجتياز الهوة الكبير التي تصل بينهما.

وعطفا على ذلك، نجد الباحث مستصحبا موقف المثقفين المغاربة من الأدب العامي، ذاكرا أنه واجه إنكارا وعدم تحفيز نحو اتخاذ الزجل موضوعا لرسالة جامعية. ومدافعة لهذا الموقف، أوضح الباحث رأيه مؤكدا أن الأدب الشعبي مكون أساسي للترات المغربي، وهو بتعبيراته المتنوعة إبداعيا يعد تجليا لمقومات الشخصية الوطنية والذاكرة الجماعية.

كما أن الباحث يجيب عن إشكالية العامية في الأدب، فيبين أن العامية في التراث الشعبي المغربي ليست مظهرا لصورة الفصحى أو عائقا لمصالحة التعبير بها، بل يرى أنها(العامية) مزيج مركب من العربية كما وفدت إلى المغرب، ومن اللغة المحلية. ويشير بهذا الصدد إلى نقطة مهمة تتعلق بمرحلة الاستعمار التي هدفت إلى القضاء على اللغة العربية وأيضا العامية، من أجل فرض سياسته اللغوية وجعلها أداة للفكر والثقافة. وفي آخر هذا السجال، أوضح الباحث أن العربية أثبتت رسوخها وقوتها في العالم العربي، وغدت مصدرا متماسكا قوميا وثقافيا في العالم العربي.

2. التصميم المنهجي للكتاب:

قسم الباحث كتابه إلى مدخل، بين فيه مختلف أنواع الغناء في المغرب، فعرض فيه للقصيدة الزجلية وإيقاعاتها الموزونة، وطرق إنشائها، وأن الزجل حظي بشعبية، وظلت قصائده محل احتفاء في الذاكرة الجماعية. ثم أتبع المدخلَ ثلاثة أبواب، لكل باب ثلاثة فصول. الباب الأول: الشكل. ويتفرع إلى الفصول التالية: الفصل الأول: مفهوم الزجل وأنواعه. الفصل الثاني: اللغة

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

والفنية. الفصل الثالث: العروض. وهناك الباب الثاني وسمه ب: الموضوعات. ويتفرع إلى الفصول التالية: الفصل الأول: المرأة. الفصل الثاني: في الحياة. الفصل الثالث: مع الناس. الفصل الرابع: في حمى الله والرسول. والباب الأخير كان بعنوان: الأعلام. وفيه تتوزع ثلاثة فصول. الفصل الأول: مرحلة النشأة. الفصل الثاني: مرحلة التطور. الفصل الثالث: مرحلة الازدهار. وختم الباحث عمله بإيراد ملحق يتضمن جميع الفهارس التي اعتمدها في جمع مادة البحث.

3. منهجية جمع مادة الكتاب:

دأب الباحث على وضع خطة بحثية في جمع مادة التأليف من خلال جمع ماتفرق من الأدب المغربي في بطون كتب التراث المغربي، فيبحث في مصادر متباينة ككتب التاريخ العام والخاص، وكتب التراجم والطبقات، وكتب الجغرافيا والرحلات، وكذلك في الفهارس والبرامج، وحتى في الكناشات وكتب النوازل الفقهية..(2).

وبعد جمع مادة الكتاب نجد حرص الكاتب على تصنيف وترتيب مادة الكتاب ثم تقديم تعقيبات على شكل شروحات في مرحلة تاريخية بالمغرب أو مقارنة بين الموضوعات الأدبية وسياقها التاريخي والاجتماعي، ثم يستخلص نتائج لها تنير مجال التلقي عند القارئ .

الباب الأول: الشكل

وقد ابتدأ فصله الأول بمفهوم الزجل، فاستهله بتحقيق تاريخي عن مصدر الكلمة، ليجعل لها ارتبطا دلاليا من الناحية اللغوية(3) ثم بين أن الاستعمال الاصطلاحي لمفهوم الزجل(4) ظهر مع ابن قزمان(5)، الذي يعد أول من نحته كفن له أداؤه وغرضه.

ثم عرض الباحث لمقارنة في تسمية الزجل بين الشعر الشعبي والفن الأندلسي(6)، فأورد أخبارا تشير إلى أنه من حيث النمط الفني فقد ارتبط الزجل بالفن الأندلسي(7)، وأكثر منه في الشعر المغربي، فأعقب إثر ذلك مبينا أن مفهوم الزجل قد استوعب كل نظم باللغة العامية، باعتبار أن الشعر العامي في مرحلة زجلية سابقة حاكى نظم الزجل المبني على قواعده، وفي هذا الصدد أورد قول صفي الدين الحلي:" وأول مانظموا الأزجال جعلوها قصائد مقصدة وأبياتا مجردة على عروض العرب بقافية واحدة كالقريض لايغايره بغير اللحن واللفظ العامي، وسموها القصائد الزجلية"(8). كما ذكر الباحث أن المغاربة أطلقوا لفظ الزجل للدلالة على ماينظمون من شعر بالعامية، ثم سرد تبعا لهذا المعطى أبياتا تشتمل على كلمة الزجل للشاعر سعيد التلمساني (9)، كنوع من التعبير عن طريقة الأداء. وفي ملاحظة أخرى، يرى أنه قد وقع التباس في تجنيس الفنون عند المغاربة، وبنى رأيه في ذلك على أقوال أدباء، كقول محمد التادلي في فتح الأنوار:" إن الكلام الذي يتكلم به الإنسان من حيث هو إما معرب أو ملحون، وكل منهما إما منظوم أو منثور، لكن جرى في الاصطلاح أن الموزون يطلق على النظم المعرب، والملحون يطلق على النظم غير المعرب..والملحون هو موشحات وقصدان"(10). واعتبر الباحث أن هذا غير دقيق في التجنيس، فعقب على محمد التادلي قائلا:" جعل الموشح لونا من ألوان الشعر الملحون، مع اعتبارنا أن هذا خلط"(11). كما يرى الباحث أنه حينما نقيس الملحون الأندلسي والملحون المغربي، نجد أن الملحون المغربي في تعداد أوزانه وتنوع قوافيه وعدم خضوعه لبحور الخليل أقرب إلى الزجل منه إلى الملحون الأندلسي الذي التزم شكل القصيدة المعربة. ثم بين الباحث أن مصطلح الزجل قد استوعب في العصر الحديث كل ألوان الشعر الذي ينظم باللهجات العامية المحلية، ويعتبر من جهة ثانية أن مسعى توحيد اللغة والاشتغال على المصطلحات

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

من طرف حماة اللغة العربية قد يكون قاصرا عن توحيد الرؤية وتحقيق التفاهم والتعبير. وبالتالي يرى أن" دراسة الأشعار العامية بصفة خاصة، واللهجات العربية المحلية بصفة عامة هي السبيل الموصول إلى الوحدة اللغوية المنشودة"(12).

والكاتب من خلال تصوره للمصطلح يفضل أن يجعل الزجل مستوعبا لكل أن الشعر الشعبي المغربي، ويدعو بذلك إلى تبني واستعمال هذا اللفظ بدل أي كلمة أخرى، خصوصا وأنه في مرحلة التأسيس والتعريف به كجزء من التراث المغربي، قد فقد بوصلة الاهتمام والدرس من طرف الدارسين.

وفي بيان أنواع الزجل، أورد الباحث اعتمادا على كتاب" الأقنوم في مبادئ العلوم" لعبد الرحمان الفاسي، خمسة عشر نوعا من الزجل، وهي حسب الباحث لها مواطن مختلفة وأدوات متباينة، حيث هناك المدن والقرى والبوادي والجبال...وهناك لهجات متباعدة، كالريفية والشلحية والسوسية والعربية، ولكن كل لهجة من هذه اللهجات شهر شعبي خاص.

في الفصل الثاني المعنون ب"اللغة والفنية" ، و في حديثه عن اللغة عرض لمرحلتي التعريب والعامية. فأشار الباحث إلى أن عهد المرابطين كان لحظة مهمة لنهضة معرفية شملت التعريب والاهتمام باللغة العربية، وذلك بفضل عوامل، ذكر منها: قوة الدولة في مجالات الدين والاقتصاد والسياسة وتجليات ذلك على نفوس المغاربة من استقرار وتهييء فرص التعلم والدرس/ الوحدة مع الأندلس والتي تعد تلاقحا ثقافيا مهما ساهم في انبعاث حركة علمية شاملة، وبالتالي حظيت بعناية الدولة والحرص على تجويدها وانتشارها في أنحاء المغرب.

وقد استمر هذا الإشعاع الثقافي والتعريب على مستوى الإنتاج المعرفي في عصر الموحدين، وسار حسب الباحث في اتجاهين: انتشار العربية لغة للكتابة والعلم/ انتشار العربية لغة التخاطب والحياة اليومية، وفي هذا الاتجاه يقول عنها الباحث:" وهي لغة لم تكن معربة بأي حال من الأحوال، وإنما كانت لهجة دارجة تختلف في المغرب عن غيره من الأقاليم، وهي التي يهمنا أن نتعرف عليها"(13).

من جهة موازية، أورد الباحث مقطعا للكاتب إبراهيم أنيس من كتابه" في اللهجات العربية" يعرف فيه العامية بأنها:" مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة. وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ماقد يدور بينهم من حديث فهما يتوقف على قدر الرابطة التي تربط بين هذه اللهجات.

وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات هي ما اصطلح على تسميتها باللغة. فالعلاقة بين اللغة واللهجة هي العلاقة بين العام والخاص"(14). ويرى الباحث أن اللهجات داخل اللغة الواحدة تتميز بثلاثة عناصر: طبيعة الأصوات/ مبنى بعض الكلمات/معنى بعض الكلمات. كما يعزو تكوين اللهجات إلى أربعة عوامل مهمة: توارث الكلام جيلا إثر جيل/ طبيعة الأقاليم/ الاحتكاك بالأعاجم والاتصال بهم ومدى هذا الاتصال وما ينقل به من كلمات وتراكيب أجنبية/ اختلاف الألسنة والحناجر قوة وضعفا وصلابة ورخاوة.

وبناء على هذا الرأي استند الباحث إلى نص بن حزم من كتابه(الإحكام في أصول الأحكام) الذي يذكر أن العربية هي لغة مضر وربيعة لالغة حمير لغة واحدة، تبدلت بتبدل مساكن أهلها فحدث فيها جرش(الحك)، كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة أهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام نغمة الأندلسي..وهكذا في كثير من البلاد فإنه بمجاورة أهل البلدة بأمة أخرى

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

تتبدل لغتها تبديلا لايخفى على من تأمله. ونحن نجد العامة قد بدلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلا وهو في البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى ولافرق، فنجدهم يقولون في العنب، العنيب، وفي السوط، أسطوط...(15) "

ثم استرسل الباحث في بيان فكرة أن اللهجة العامية تجلٍ طبيعي لعوامل البيئة والهجرة والاندماج المجتمعي، واستدل على ذلك بأشباه ونظائر من التطور الذي عرفته اللغة العربية و العصرين الأموي والعباسي. وفي جانب آخر متعلق بالعامية، يتأسف بأنها لم تحظ بالكتابة والتقعيد بما يوفي حقها. وقد ذكر الباحث تبعا لذلك خصائص للعامية، قسمها إلى قسمين: الأول يشمل اللهجة الدارجة المغربية، أي المنتشرة في أهم المدن والمناطق. والثاني خاص بلهجة الزجل، وهي تدخل في نطاق اللهجة العامية لاتختلف عنها إلا في بعض الجوانب التي حاول الشعراء تطويرها أو إضافتها تطويعا، والاختلاف يكون على المستوى الصوتي أكثر منه في بنية الكلمات.

يستوقفنا الكاتب بعد ذلك مع بلاغة العامية، فيرى أنها:" تنطوي على امتصاص المعاني والأفكار الجديدة واكتساب الألفاظ والتراكيب الوافدة". وأورد إثر هذا الطرح الجديد مظاهر البلاغة في القصيدة الزجلية من خلال عناصر ذكر منها: الجناس، وهو لايكون عندهم إلا تاما كقول الشاعر: بجفاك عمدا لي عدت نحيل/ ماشفت تعذابي أو لامحاني/سيف لجفا امحاني/لعباد لامحاني.

فامحاني الأولى، جمع محنة، والثانية فعل محا فاعلُه السيف، والثالثة فعل لمح بمعنى رأى فاعلُه العباد.

كما نجده ذاكرا مبحث التصريف باعتباره نوعا من الجناس، حيث يتصرف الشاعر في كلمة باستعراض عدد من اشتقاقاتها، وغالبا ما يفعل ذلك باسم الحبيبة، مثال ذلك قول المدغري في قصيدة(مسعودة): كولوا لمسعود ياطلوع اكواكب لسعاد/ أنا من سعد اسعادتك وانت مسعودا/ أنت بدر السعود وانت لهلال اسعود.

وعرض الباحث لمبحث التضمين أو التلزيم كمكون للقصيدة، وهو أن يضمن الشاعر القافية أكثر من حرف ويلتزم ذلك في كل القصيدة أو في بعض أقسامها، وهو ما يسمى في الأدب العربي بلزوم مالا يلزم، مثال ذلك قصيدة(ملكة) للحاج أحمد الغرابلي التي التزم في قسمها الأول بحرف اللام والكاف: يا من طلوع هلالك/يفجي الظلام لحالك/ نحكي اشموس لفلاك/ لله جد لي بوصالك.

وذكر الباحث أيضا مبحثا يسمى بالنشب، وهو ثلاثة أنواع: نشب الكلمة وهو أن يستهل الشطر بكلمة من الشطر الذي قبله، والبيت بكلمة من البيت السابق عليه، مثال ذلك قول الشاعر محمد بوزيان في قصيدته(المحبوب): محبوب خاطري من فكد وعمدالي/ عمدا لي والنوم ضج من لنجال/ لنجال على الخد دمعها سلسالي/ سلسالي يهوا كما لمطر هطال.

وهناك نشب كلمتين ومثاله قول الشاعر أحمد الغربلي في قصيدته(عين الرحمة): أعين الرحما الراحما ياقرة لنيام/ ياقرة لنيام جد لي يابحر التعظيم/ يابحر التعظيم والفضل ياعين الرحما.

ثم انتقل الباحث إلى الحديث عن فنية الأسلوب، باعتباره جانبا مهما في فن القصيدة، حيث بين فيه الباحث خصائص أسلوبية ترتقي بفنية التعبير، وحددها في: التشبيه والمقارنة، مثل تشبيه المرأة بالغزال والطائر والياقوتة والقمر والزهرة والمصباح. ومن حيث المقارنة، فإن الشاعر يقيم مقارنة بين جمال محبوبته وجمال الشمس والقمر، كما يقارن بين حاله وحال محبوبته، فيقابل بين قلبه المشتعل وقلبها المرتاح.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وهناك خصيصة الحركة والحيوية والتشخيص، حيث يشير الباحث إلى أنها غدت سمة منتشرة في القصيدة الزجلية، وتتجلى في أن العنصر المشبه يتحرك بصفاته داخل القصيدة ويخلق صورا من خلال تشخيصه لها، موظفا في ذلك معجمي الطبيعة والمرأة.

وهناك خصيصة الحوار، ويقسمها الباحث إلى نوعين:

1) حوار قصير يتجلى بين الشاعر ومحبوبته في خلال شكواه وصبابته، فتجيبه كاشفة عن أوصافها، ومثله حوار الشاعر مع الشمعة والحمام.
2) حوار طويل ويقصد فيه الشاعر إلى تعددية الأصوات ومسرحة القصيدة داخل تيمة عاطفية(نموذج قصائد الحراز).

وذكر الباحث خصيصة القصة كبناء سردي يقوم على الجمع بين الخيال والتاريخ والواقع(نموذج قصيدة الدمليج).

ثم انتقل بنا الباحث في الفصل الثالث" العروض" إلى البحور، وبين بأن أوزان القصيدة محددة في نطاق العروض العربي إيقاعا ونغما. فأورد بذلك تفعيلات خاصة للزجالين المغاربة يطلقون عليها(الصروف) وهي قطع معدنية تتخذ مقاييس لوزن الكيل الدندنة = مالي مالي).

وقد أطلق الزجالون المغاربة على البحور" لمرمات" جمع مرمة، ومعناها المنوال. والعروض عندهم أربعة أقسام: المبيت، مكسور الجناح، المشتب، السوسي.

المبيت: يقوم على عدد معين الأشطار في البيت وعلى عدد من الأبيات، يلتزم كل قسم من أقسام القصيدة، وهو حسب الباحث مطرد في استعمال الشعراء، ويتفرع إلى أشكال أربعة :

1) المثنى: ويتركب البيت فيه من شطرين، يطلقون على الأول الفْراش، والثاني الغطاء
2) الثلاثي: ويتكون البيت في من ثلاثة أشطار
3) المربوع أو الرباعي: ويتكون البيت فيه من أربعة أشطار.
4) لشطار أو الخماسي: ويتكون البيت فيه من خمسة أشطار.

وبالنسبة لقسم مكسور الجناح، فإنه يتفرع إلى أربعة أجزاء :

1) الدخول: وهو شطر يقدم في الاستهلال لاغطاء له
2) لمطيلعات: وهي مجموعة من الأشطار القصيرة.
3) بيت على وزن الحربة وقافيتها كأنه تمهيد لها.
4) الحربة أي اللازمة.

وهناك قسم المشتب وهو مكون من بيت يفصل بين أول أشطاره وبقيتها مجموعة من الأشطار القصيرة تسمى" لمطيلعات"، وكأنه محشو بهذه الأشطار الزائدة.

أما قسم السوسي فهو مكون من ثلاثة أجزاء :

1) بيت من شطرين يستهل به القسم.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

2) مجموعة من الأشطار المرسلة دون تقييد في العدد والوزن والقافية، لايخضع لغير تسلسل الإنشاد.
3) بيتان أو ثلاثة أبيات على نفس الوزن والقافية، تكون كالتمهيد للحربة.

ثم استوقفنا الباحث على بناء القصيدة، وعرض في مستهل إيضاحه أسماء القصيدة الزجلية(قصيدا، لقصيد)، و من حيث البناء فإنها تبتدأ بمقدمة يطلق عليها" السرابة" ويقدم فيها الزجال المغربي بقطعة قصيرة تكون في نفس البحر، يمهد بها لضبط إيقاع الوزن الذي سينظم عليه.

وهناك أجزاء القصيدة وتسمى بلفصالا، وتبدأ بالدخول، الذي يطلق على أول جزء من القصيدة، تليه الحربة أي اللازمة، وبيْن الدخول والحربة تتقسم الأبيات حسب موضوع القصيدة، والغالب حسب الباحث أن الأقسام تتراوح من أربعة إلى عشرة.

كما أوضح الباحث نظام القافية في القصيدة، فذكر أن هناك مظهرين للقافية تقوم عليهما لقصيدة، المظهر الأول عند استعمال حرف واحد، وقد وصفوا القصيدة على هذا النمط بأنها على مخها أي لم يدخلها حرف آخر، أما المظهر الثاني فيتجلى في استعمال قوافي داخلية في البيت.

جاز بنا الباحث بعد ذلك إلى باب" الموضوعات" وهو يشتمل على موضوعات القصيدة التي غدت مورد الزجال، ومتخيل فضائه الشاعري، حيث يستقي منه مادته، ويخلق في أجوازه تعبيراته وصوره الشعرية. وقد ابتدأ البحث بفصل أول عنوانه" المرأة" باعتبارها موضوعا كونيا يبعث على التعبير، ويحرك في نفسية الشاعر مواجيد التعبير عن خلجات متعلقة بالمرأة إلى مقام رفيع، ونظروا إليها جوهرا للحياة ومحور الكون.

تبعا لذلك يتفاعل الشاعر مع موضوع الحياة، وهو ما بينه الباحث في الفصل الثاني، وفي ذلك يتشابه الشاعر الزجال مع الشاعر العربي من حيث الجمع بين نوازع الثروة على المألوف أو التمرد على قيود المجتمع، والاستسلام إلى قدرة الله والتعلق به. وقد ذكر الباحث تشكلات لهذا الموضوع من خلال: الخمر والطبيعة، فيذكر الشاعر أسماءها، أوصافها، أواني شربها، أو وقته المفصل لشربها، أو الاستمتاع بملذاتها. و من جانب آخر يستحضر تيمة الدين، فيذكر الاستغفار، أو ينتقل إلى حال يصف فيه خمرة التصوف. كما عقد الباحث فصلا بعنوان" مع الناس" وفيه بين تجليا مهما في الموضوعات تعلّق بأغراض الشعر الاجتماعية المحددة في الفخر، المدح، الرثاء، الهجاء. وقد ركز فيها على جانب التخييل باعتباره عنصرا مهما في استصحاب المشهد الشعري، وتعالق مكون الوصف وخلق مجال التعبير والبوح داخل فضاء النص الشعري الزجلي .

وهناك موضوع أخير فيه هذا الفصل بعنوان " فيحمى الله والرسول" تطرق إليه الباحث لأهميته وفرادته، حيث ظل محل إبداع عند الشعراء المغاربة، فأوضح الباحث بهذا الصدد أن الشاعر الشعبي قد امتلك القدرة على توظيف تيمة عرفانية متعلق بالشمائل المحمدية، إذ غدت معينا ورافدا تتهيأ به القصائد ضمن مناسباتها، فيقول الباحث عطفا على هذا المعطى:" و لم يكتف الشاعر الشعبي بارتضاء القول في المديح النبوي، وإنما جعل منه فنا قائم الكيان، ناضج الصور، مكتمل الخصائص، تناول فيه سيرة الرسول بما فيها من صفات وشمائل ومعجزات..وكانت المواسم الدينية، وخصائص ذكرى المولد النبوي أعظم مناسبات لإنشاد هذه القصائد."(16)

وقد وسم الباحث الباب الثالث ب"الأعلام" خصصه للحديث عن الذي برزوا في الشعر الشعبي. فعقد فصلا أولا بعنوان" مرحلة النشأة"، وفيه طرح الباحث إشكال البدايات سواء على مستوى النصوص أو النسبة إلى أصحابها، فابتدأ بقوله:" من

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الصعب تحديد نشأة شعر أداته لهجة عامية دارجة، وليس من شك كذلك في أن تلك الصعوبة تزداد حين لاتتوفر النصوص الأولى لهذا الشعر مروية كانت أو مدونة.."ص(17). وأورد بعد ذلك أقوال لأساتذة مؤرخين مناقشا إياهم في مسألة تحديد البدايات الزجلية، كقول الأستاذ محمد الفاسي(18) الذي حدد بداية الشعر الشعبي مع بن عبود في قصيدة" الحربة"، وذلك في منتصف القرن العاشر، مع أن الباحث لا يوافقه في هذا التحديد، فيذكر قبل ذلك الشاعر ابن غرلة الذي عاش في عصر الموحدين، وابن حسون، وابن شجاع التازي، وهذا الأخير قد ورد عند ابن خلدون إثر ذكر على فن عروض البلد، حيث قال:" فاستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الإعراب الذي ليس من شأنه."(19)

أيضا هناك الشاعر الكفيف الزرهوني، الذي أورد فيه الباحث قول ابن خلدون:" وكان لهذه العصور القريبة من فحولهم بزرهون من ضواحي مكناسة رجل يعرف بالكفيف، أبدع في مذاهب هذا الفن"(20). والفكرة التي أكد عليها الباحث من خلال هذه المعطيات التاريخية هي إثبات وجود الزجل منذ عهد الموحدين. وتبعا لذلك طرح إشكال أصل القصيدة الزجلية، فعرض أسئلة نشأة القصيدة، أهي امتداد للزجل الأندلسي؟، أم محاكاة للموشح؟، أم هي تأثر بشعر أهل الأمصار العرب الوافدين إلى المغرب؟ أم أنها تطور لأغان ومرددات شعبية محلية؟. فيتتبع الباحث باستقصاء تاريخي منهجي لبيان أن من المحتمل نظم المغاربة الزجل على نمط الزجل الأندلسي في عهد الموحدين، كما يفترَض أن يكون حتى في عهد المرابطين باعتبار التأثر الثقافي للعدوتين. ويمكن أيضا أن التأثر بفن الموشحات كان سمة بارزة، كما أن زجالي البدايات رويت عنهم أبيات الموشح قبل أن يتفردوا بالقْصيدة الزجلية، كابن غرلة(21) الذي رويت له موشحة معروفة باسم" العروس"، ومن ناحية أخرى يمكن الترجيح بأن تأثر الشعر الشعبي بالأغاني والمرددات الشعبية المحلية التي كانت بالمغرب وارد لما يتناسب مع طبيعة التعبيرات الاجتماعية في مناسباتها المفرحة أو المحزنة بطرقها المتواضَع عليها والمألوفة من حيث عاداتها وأعرافها. ثم أشار الباحث إلى أن الزجل قد تشكل بطفرة نوعية من خلال محاكاته لما سماه بن خلدون ب" عروض البلد" فقال عنه:" ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فنا آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضا وسموه عروض البلد.."(22). كما يرى الباحث أن المحاكاة الزجلية امتداد موسوم لأشعار العرب الوافدين، وخاصة منهم الهلاليين، وقال بهذا الصدد: " فليس من قبيل المصادفة أن تكون القصيدة في شكلها الحالي ظهرت في جنوب المغرب وأن يكون أغلب أعلامها من الفلاليين الصحراويين..بل ليس من قبيل المصادفة أن نجد الأزجال المغربية آثارا للقصص والملاحم الشعبية التي جاء بها أولئك العرب، تتمثل في الإشارة إلى أسماء عبلة وجازية وعنترة"ص(23). وقد عقد الباحث فصلا ثانيا بعنوان:" مرحلة التطور" أوضح فيه ظواهر التطور والتجديد في فن لقصيدة، وذلك من خلاله عرضه لقصائد متعددة(عبد أحسابن، حمادى الحمري، عبد الرحمان المجدوب..) وخلص إلى أن التطور شمل المضمون من خلال تطرق الشاعر إلى تيمات، الطبيعة، الكون،المرأة.. الحياة..أيضا تطور فن القصيدة من حيث الشكل، سواء على مستوى التقسيم أو اللازمة، أو توظيف مكون الحوار وبناء قصة النص الشعري الزجلي. ثم ختم الباحث الباب الرابع بفصل " مرحلة الازدهار" حيث حدد فيه زمن تجدد القصيدة في الربع الأخير من القرن الثالث عشر، وفيها برز شعراء زجالون متميزون كالجيلالي امتيرد التي اختص بشعر الخمريات، وأيضا يعتبر من الذي وظفوا الرمزية من خلال قصيدته" الشمعة"، ثم قصيدته" الحراز". وهناك الشاعر الزجال" الحاج محمد النجار المراكشي" الذي برز في الشعر الوصفي

لمظاهر الحياة الاجتماعية. ومن البارزين في مرحلة الازدهار الشاعرُ الزجال" عبد القادر بن عبد الرحمان بوخريص"، الذي تولى قضاء مدينة فاس، وقد اختص في المديح النبوي، وهناك أيضا "محمد بن علي العمراني" من نواحي تافيلالت، وكما ذكر

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الباحث أن هذا الشاعر الزجال يعد أول من نظم زجلا سياسيا كما هو مبثوث في قصيدته" المصرية"، وهو من الذين أجادوا في قصائد تسمى ب" السولان" التي يوجهها الزجال لخصومه محاولا تعجيزهم إن لم يستطيعوا حل الأسئلة التي تضمنتها، إلى غير ذلك من الأعلام الذين شكلوا رؤية الازدهار وبرزوا في فن القصيدة.

خاتمة:

يمكن القول في الأخير أن كتاب" القصيدة" للباحث الأكاديمي عباس الجيراري بمثابة وثيقة صادقة لتاريخ الأدب المغربي، ممثلا في لون شعري غدا جزء قيما في ذاكرتنا ومحل اعتزاز ثقافي يتفاعل مع البيئة السوسيوثقافية، ويوثق تراثها الحضاري، كما أنه مظهر ارتكاز قويم للهوية التي تكرس وجودها الأدبي من داخل الثقافة الوطنية الممتدة، ثم تملك القدرة على الانفتاح على الآخر برؤية حضارية، دون التباس أو استلاب الذاكرة الثقافية وتراثنا الشعبي الموروث الشفوي والمدون.[ii]

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الهوامش:

1) عباس الجيراري. الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه. الجزء الأول. منشورات مكتبة المعارف الرباط. الطبعة الثانية 1982. ص3
2) نفسه ص5
3) والزجل لغة هو رفع الصوت والتطريب. يقال: زجَل يعني طرّب وتغنى.." أنظر لويس معلوف. المنجد في اللغة. دار المشرق. بيروت. ط1992. ص294
4) يقول ابن خلدون:" واستحدثوا فنا سموه بالزجل، والتزموا النظم فيه على مناحيهم لهذا العهد، فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة" انظر مقدمة ابن خلدون. اعتناء ودراسة أحمد الزعبي، دار الأرقم بن أبي الأرقم للنشر والتوزيع.ط1991 ص681
5) نفسه ص681
6) نفسه ص681
7) عباس الجيراري. الزجل في المغرب ألقصيدة. نسخة مصورة ص50
8) "سعيد بن عبد الله التلمساني المنشأ، المنداسي الأصل، أبو عثمان شاعر بالملحون. من آثاره" العقيقة" قصيدة لامية في مدح النبي(ص)" أنظر معجم أعلام الجزائر. عادل نويهض.
9) المجلد الأول. مؤسسة نويهض الثقافية.ط، الثانية. 1980. ص68
10) الزجل في المغرب القصيدة ص52
11) نفسه ص52
12) نفسه ص54
13) نفسه ص101
14) باعتبار أن اللهجة العامية في مستواها المعجمي والتركيبي والدلالي أصولها عربية
15) الزجل في المغرب–القصيدة– ص103

16) الزجل في المغرب–القصيدة– ص103
17) نفسه ص534
18) "تخرج من مدرسة العلوم المشرقية بباريس، درس بمعهد الدروس العليا بالرباط، ثم ولي إدارة جامعة القرويين. وهو أول وزير للتربية الوطنية بعد استقلال المغرب، ثم عميد جامعة محمد الخامس. من مؤلفاته: أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين. توفي سنة 1991. أنظر معجم المطبوعات المغربية لإدريس الماحي القيطوني الحسيني. تقديم عبد الله كنون. ص271
19) الزجل في المغرب–القصيدة– ص 544
20) نفسه ص545
21) "ورد هذا الاسم في المراجع بصور مختلفة مثل: ابن غرلة، ابن غرل، ابن غزال..وكان شاعرا مغربيا ينظم الموشح والزجل والمزنم، فيلحن في الموشح، ويعرب في الزجل.. واختلافوا فيمن اخترع الزجل، فقيل: إن مخترعه ابن غرلة..توفي سنة 558". أنظر العاطل الحالي والمرخص الغالي لصفي الدين الحلي. تحقيق حسن نصار. مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة. طبعة ثانية.2002 .
22) الزجل في المغرب. القصيدة.ص556
23) نفسه، ص 515

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/